

شرح كتاب (الرد على الجهمية) لعثمان بن سعيد الدارمي - رحمه الله.

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. أحمد بن عبدالرحمن القاضي

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٣)

قال المؤلف رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والمسلمين: [باب الإيمان بالعرش وهو أحد ما أنكرته المعطلة.

قال أبو سعيد: وما ظننا أنا نضطر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعي الإسلام في إثبات العرش والإيمان به، حتى ابتلينا بهذه العصابة الملحدة في آيات الله، فشغلونا بالاحتجاج لما لم تختلف فيه الأمم قبلنا، وإلى الله نشكو ما أوهت هذه العصابة من عرى الإسلام، وإليه نلجأ، وبه نستعين].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ أبا سعيد عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله ابتداءً في الرد على الجهمية بعقد باب في الإيمان بالعرش، وفي ذلك إشارة إلى مسألة من أعظم مسائل الاعتقاد وهي مسألة العلو، إذ أنه يرتبط بالإيمان بالعرش الإيمان بعلو الله عز وجل، لأنَّ الله تعالى استوى عليه.

والعرش في اللغة: هو سرير الملك، قال الله تعالى في قصة سليمان: ((وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)) [النمل: ٢٣].

وأما في الاصطلاح فإنَّ العرش أعظم المخلوقات وأعلاها وأكبرها، وهو سقف العالم، وهو سقف الجنة أيضاً، وفوقه الرحمن سبحانه وبحمده، وهو سرير له قوائم تحمله الملائكة، هذا هو ما دلَّت عليه النصوص، أنَّ الله

سبحانه وتعالى له عرش حقيقي، له قوائم تحمله الملائكة، كما قال الله تعالى: ((وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً)) [الحاقة: ١٧]، وكما قال نبيه صلى الله عليه وسلم: {فإذا أنا بموسى باطشاً بساق العرش}.

وهذا العرش الموصوف عرش هو أعظم المخلوقات وأكبرها وأعلىها، وهو سقف العالم، وهو سقف الجنة، وفوقه الرحمن سبحانه وتعالى قد استوى عليه، فكانت المعطلة تنكر العرش، وتؤله تأويلاً مجازياً، تزعم أنه الملك، أو غير ذلك من التأويلات المجازية، بخلاف طريقة أهل السنة فإنهم يعتقدون أنه عرش حقيقي، فلهذا عجب أبو سعيد أنه اضطر إلى أن يقرر هذا الأمر الذي من الوضوح بمكان، لولا أن المعطلة اضطرت به إلى إثبات ذلك وسياق النصوص الدالة عليه، فلنستمع إلى ما ساقه من آيات وأحاديث.

[وقد حقق الله العرش في آي كثيرة من القرآن، فقال تعالى: ((خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) [هود: ٧]، وقال تعالى: ((الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)) [طه: ٥]، وقال تعالى: ((ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلُ بِهِ خَبِيرًا)) [الفرقان: ٥٩]، ((وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ)) [الزمر: ٧٥]، في آي كثيرة سواها.

فادعت هذه العصاة أنهم يؤمنون بالعرش ويقرون به، لأنه مذكور في القرآن، فقلت لبعضهم: ما إيمانكم به إلا كإيمان ((الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ)) [المائدة: ٤١]، وكالذين ((إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)) [البقرة: ١٤]، أنقروا أن الله عرشاً معلوماً موصوفاً فوق السماء السابعة، تحمله الملائكة، والله فوق كما وصف نفسه، بائن من خلقه؟ فأبي أن يقر به كذلك، وتردد في الجواب، وخلط ولم يصرح.

قال أبو سعيد: فقال لي زعيم منهم كبير: لا، ولكن لما خلق الله الخلق، يعني: السموات والأرض وما فيهن، سمى ذلك كله عرشاً له، واستوى على جميع ذلك كله.

قلت: لم تدعوا من إنكار العرش والتكذيب به غايةً، وقد أحاطت بكم الحجج من حيث لا تدرون، وهو تصديق ما قلنا إن إيمانكم به كإيمان ((الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ)) [المائدة: ٤١]، فقد كذبكم الله تعالى به في كتابه، وكذبكم به الرسول صلى الله عليه وسلم.

إذا أبو سعيد رحمه الله أشار إلى طريقة هؤلاء المعطلة في المراوغة، فإنهم يظهرون للناس أنهم يقرون بما جاء به القرآن، ولكن عند التدقيق والتحقيق معهم يتبين أنهم يظهرون ذلك بأفواههم وينكرون بقلوبهم، فلما حقق معهم القول في هذه المسألة تبين أنهم يفسرون العرش بأنه عموم ملكه سبحانه، وسماواته وأرضه، وأنه استوى عليه بمعنى استوى عليه، لا على ما يثبته القرآن والسنة، ويفهمه سلف هذه الأمة من إثبات عرش حقيقي له قوائم هو سقف العالم قد استوى الله عز وجل.

وورد في كلام أبي سعيد قوله: (كما وصف نفسه، بائن من خلقه؟) هذه اللفظة (بائن من خلقه) لم ترد في لفظ آية ولا حديث، وإنما عبر بها السلف رحمهم الله تحقيقاً للإثبات، وينبغي أن نفرق بين مقامين: بين مقام الحجاج، وبين مقام التقرير، ففي مقام التقرير نلتزم بعبارة القرآن والسنة، لأنه لا أحد أحسن من الله حديثاً، ولا أصدق قبلاً، فينبغي لكل من أراد أن يقرر ما وصف الله به نفسه وسمى به نفسه أن يلتزم ألفاظ الكتاب والسنة، ولكن في مقام الحجاج والمناظرة قد يحتاج العالم إلى الاستعانة ببعض الكلمات الكاشفة التي تمحق وتنسف تمويهات المخالفين، فقوله: (بائن من خلقه)، البينونة معناها: الانفصال، وقد كانت الجهمية تزعم أن الله تعالى حالٌّ في كل مكان، لا سيما أوائلهم الذين كانوا يعاصرون الدارمي ومن في طبقتهم، فكان أهل السنة يقولون: كلا، بل هو في سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه. قصدهم بقولهم: "بائن من خلقه"، أي: ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، بل هو سبحانه وتعالى فوق السموات العلى، على العرش استوى، فالكلام فصل وحزم، بائن من خلقه، يعني: ليس مختلطاً بهم، كما كانوا يلبسون بقول الله تعالى: ((وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)) [الحديد: ٤]، يزعمون أن هذه المعية معية امتزاج واختلاط. تعالى الله عما يقولون، فهذا أكذبهم السلف وردوا عليهم ذلك بعبارات واضحة كهذه العبارة وهي قوله: (بائن من خلقه).

فإذاً هو كره عليهم رحمه الله بالقول (لم تدعوا من إنكار العرش والتكذيب به غاية)، فأبى تكذيب أعظم من هذا التأويل البارد بدعوى أن العرش هو السموات والأرض، قد أغنانا الله تعالى عن هذا في أنه كثيراً ما يذكر خلق السموات والأرض، فلو كان المقصود بالعرش السموات والأرض لاكتفى بما ذكر سبحانه، لكنه أراد معنى حقيقياً للعرش، فعاد عليهم بالمناقشة فقال:

[أرأيتم قولكم: إنَّ عرشه سمواته وأرضه وجميع خلقه، فما تفسير قوله عندكم: ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)) [غافر: ٧]، أم حملة عرش الله، أم حملة خلقه؟ وقوله: ((وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً)) [الحاقة: ١٧]، أي حملون السموات والأرض ومن فيهن، أم عرش الرحمن؟ فإنكم إن قلتم قولكم هذا، يلزمكم أن تقولوا: ((عَرْشَ رَبِّكَ)): خلق ربك أجمع، وتبطلون العرش الذي هو العرش، وهذا تفسير لا يشك أحد في بطوله واستحالته، وتكذيب بعرش الرحمن تبارك وتعالى].

من أحسن طرائق الحجاج مع المخالفين أسلوب الإلزام، بأن يقال للمخالف: يلزم على قولك كذا وكذا، فيلزم إلزاماً لا محيد له عنه، فإما أن يلتزم به فيتبين زيفه، وإما أن يتصل منه فيلزمه التخلي عن قوله، فهو يقول: ماذا تصنعون بقوله تعالى: ((وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً)) [الحاقة: ١٧]، هل تقولون: يحمل خلق ربك؟ ماذا تقولون في قوله: ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ)) [غافر: ٧]، هل تقولون: ((الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ)) يعني: الذين يحملون خلقه؟ لا، ليس لهم إلا أن يلتزموا بهذا فيتبين زيفهم، أو يتخلوا عنه فيسقطوا مقالتهم وتأويلهم البارد، ولذلك نقول: إنَّ هذا المسلك وهو مسلك الإلزام من المسالك الصحيحة التي ينبغي أن يتذرع بها المنافع عن الحق لكي يبطل من قال قولاً مخالفاً لدلالة الكتاب والسنة.

[فقال الله تبارك وتعالى: ((خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)) [هود: ٧]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء}، ففي قول الله تعالى وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم دلالة ظاهرة أنَّ العرش كان مخلوقاً على الماء، إذ لا أرض ولا سماء، فلم تغالطون الناس بما أنتم له منكرون؟ ولكنكم تقرون بالعرش بألسنتكم تحرزاً من إكفار الناس إياكم بنص التزليل، فتضرب عليه رقابكم، وعند أنفسكم أنتم به جاحدون، ولعمري لئن كان أهل الجهل في شك من أمركم، إنَّ أهل العلم من أمركم لعلى يقين، أو كما قلت لهم، زاد أو نقص.

حدثنا محمد بن كثير، أنبأنا سفيان وهو الثوري، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: جاء نفر من بني تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: {يا بني تميم أبشروا}، قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا. قال: فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فجاءه أهل

اليمن، فقال لأهل اليمن: {يا أهل اليمن اقبلوا بشرى إذ لم يقبلها بنو تميم}، قالوا: قد قبلنا، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ببدء الخلق والعرش، قال: فجاء رجل فقال: يا عمران راحلتك تفلتت. قال: فقممت، وليتني لم أقم.

وحدثنا محبوب بن موسى الأنطاكي، أنبأنا أبو إسحاق الفزاري، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعقلت ناقتي بالباب، ثم دخلت، فأناه نفر من بني تميم، فقال: {اقبلوا بشرى يا بني تميم}. قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا - مرتين - ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن، فقال: {اقبلوا بشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها إخوانكم بنو تميم}. قالوا: قبلنا يا رسول الله، أتيناك لنتفقه في الدين ونسألك عن أول هذا الأمر حيث كان. قال: {كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض}. قال: ثم أتاني رجل فقال: أدرك ناقتك، فقد ذهبت، فخرجت فوجدتها قد يقطع دونها السراب، وأيم الله لوددت أني تركتها.

قال أبو سعيد: ففي هذا بيان بين أن الله تعالى خلق العرش قبل السموات والأرض وما فيهن، وتكذيب لما ادعوا من الباطل].

لا شك أن هذين السياقين والحديث في البخاري مشهور يدل على تقدم خلق العرش، وأنه من أوائل المخلوقات، وأنه عرش حقيقي، لا على ما ادعاه هؤلاء المعطلة من أنه خلق السموات والأرض، بل هو قسيم لهما، لأنه أشار إلى خلق العرش، ثم أردفه بقوله: {ثم خلق السموات والأرض}، فهذا دليل صريح على أن العرش شيء سوى السموات والأرض، تأمل {وكان عرشه على الماء، ثم كتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض}.

[وحدثنا عبد الله بن أبي شيبه، (قال): حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا بشر بن نمير، عن القاسم، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأخذ أهل اليمن يمينه، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى، وكلتا يدي

الرحمن يمين، ثم قال: يا أصحاب اليمين قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم قال: يا أصحاب الشمال قالوا: لبيك ربنا وسعديك، قال: أأست بربكم؟ قالوا: بلى، قال: فخلط بعضهم ببعض، فقال قائل: رب لم خلطت بيننا؟ قال: ((لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ لَهُمْ عَامِلُونَ)) [المؤمنون: ٦٣]، إلى قوله: ((كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)) [الأعراف: ١٧٢]، ثم ردهم في صلب آدم.

قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء، وأهل الجنة أهلها، وأهل النار أهلها}، قال: فقال قائل: يا نبي الله فقيم العمل؟ قال: {أن يعمل كل قوم لمزلتهم}، فقال عمر: إذا نجتهد.

قال: وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأعمال، فقيل: يا رسول الله، أرأيت الأعمال، أشياء يؤتف؟ أو فرغ منها؟ قال: {بل فرغ منها}.

هذا الحديث بهذا الإسناد حكم عليه المحقق بأنه ضعيف جداً، ولكن كما تعرفون كان للمتقدمين طريقة في احتمال الحديث تختلف عن طريقة المتأخرين، فإن المتأخرين إنما يحكمون على الحديث الواحد بالسند الذي سيق به، فيحكمون بضعفه، وإمام كالدارمي ومن في طبقتهم يروون أمثال هذه الأحاديث ويحتملونها وذلك بالنظر إلى مجموع طرقها، ولا ريب أن ما تضمنه هذا الحديث من معان قد دلت عليه أحاديث صحاح أخرى في باب القدر، فالله سبحانه وتعالى قد قبض قبضة فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وقبض قبضة وقال: هؤلاء في النار ولا أبالي، ولا شك أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد فرغ من الخلق.

أما الأحاديث الواردة في مسح ظهر آدم، ونثر ذريته من ظهره، ثم إسهادهم على أنفسهم، فقد وردت فيه أحاديث كثر، أمثلها حديث عمر رضي الله عنه، هو أقربها من حيث صحة الإسناد، ولكن مع ذلك فإن الآية المذكورة في سورة الأعراف لا ارتباط بينها وبين هذه الأحاديث، فإن الله تعالى قد قال في سورة الأعراف: ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)) [الأعراف: ١٧٢]، فدلالة الآية مخالفة أو ليست مطابقة لدلالة هذه الأحاديث الدالة على مسح ظهر آدم، لأن في الآية ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ)) [الأعراف: ١٧٢]، ولم يقل: من آدم، ((مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنْفُسِهِمْ)) [الأعراف: ١٧٢]، وقد اختلف العلماء في تأويلها أو في تفسيرها، فذهب بعضهم إلى ما دلَّت عليه الأحاديث المذكورة، كحديث عمر وما كان دونه من الأسانيد من أن الله سبحانه وتعالى مسح ظهر آدم، واستخرج منه ذريته في بطن نعمان في عرفة، وأشهدهم هذه الشهادة ((أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)) [الأعراف: ١٧٢]، وأن هذا الأمر وهذا الميثاق الذري قد وقع فيما مضى، ولكنه قد غاب عنَّا ولم نعد نعهده، فما منا أحد يشهد ذلك الموقف، ولا في ذاكرته أنه قيل له ذلك، وأجاب بما أجاب. وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بهذا الميثاق ميثاق الفطرة، وهو ما أودعه الله تعالى في النفوس من معرفة الله تعالى، واستحقاقه للعبادة، واستحقاقه لصفات الكمال، وهو أمر يشهده كل واحد منَّا في فطرته، فيعلم بمحض الفطرة أن لهذا الكون خالقاً، وأنه ينبغي أن يكون هذا الخالق له صفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه المستحق للعبادة، فإذا فوَّتح في مثل هذا الأمر أقر به وأذعن ورضي واستسلم، ولم يجد غضاضة في قبوله، ولا مانعاً من التسليم به، فهذا الحديث على طوله قد تضمن معانٍ دلَّت عليها أحاديث صحيحة من إثبات القدر، وسياق المؤلف له في هذا المقام لقوله: {وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء}، أراد هذه الجملة التي فيها إثبات العرش، خلافاً لما يدعيه المعطلة.